سياسة الرسول صلي الله عليه وسلم التعليمية وأثرها في تطور العلـوم

بقلم

أ. د. / محسن محمد عبد الناظر

استاذ الحديث بكلية الشريعة والدراسات الاسلامية جامعة قطر

رئيس قسم الحديث بجامعة الزيتونة . تونس - سابقاً

مجلة مركز بحوث السنة والسيرة

العدد الرابع ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م

سياسة الرسول (صلى الله عليه وسلم) التعليمية وأثرها في تطور العلـوم

تفيد كلمة « سياسة » الواردة بالعنوان الخطة الشاملة التي اتبعها الرسول صلى الله عليه وسلم ليخرج الأمة الإسلامية من الجهل إلى العلم عملاً بما ورد في القرآن الكريم من توجيهات .

ولهذه الخطة مضمون وخصائص ، ويتطلب انجازها مناهج ومؤسسات .

أمـا نجـاحهـا فيتمثـل في التحول العلمي الذي طرأ على العرب أولاً ، والإنسانية ثانياً .

ودراسة هذه الخطة بالرجوع إلى الحديث النبوي يضيف إلى تاريخ التربية والتعليم حلقة مهمة لم تلق العناية المطلوبة من المختصين ، لذلك يسعى هذا البحث إلى أن يتناول القضايا الآتية :

* مضمون سياسة الرسول صلى الله عليه وسلم التعليمية .
* خصائص هذه السياسة والأصول التي قامت عليها .
* مناهج التعليم ومؤسساته في هذه السياسة .
* أثر هذه السياسة في تطور العلوم من حيث المضمون والمنهج .

وحتى يظهر هذا الأثر واضحاً جلياً يستحسن أن يتناول مدخل هذه الدراسة قضية المستوى العلمي لعرب الجاهلية وخاصة ما يتصل بأميتهم .

أمية عرب الجاهلية :

وصف القرآن الكريم والأحاديث النبوية الأمة التي بعث فيها الرسول صلى الله عليه وسلم بأنها أمية أي لا تعرف الكتابة والقراءة ولكن بعض الداراسين سعوا إلى التشكيك في هذه الأمية وبنوا أدلتهم على الآثار مرة وعلى تأويل بعض النصوص مرة ثانية وعلى الافتراض ثالثة .

فبعد أن تقصى ناصر الدين الأسد ؛ ما وجد في شبه الجزيرة العربية من نقوش تأكد لديه أن ثمانية منها اشتهر أمرها في المنطقة الشمالية التي تمتد من العلا ومدائن صالح إلى شمال حوران . وأما وسط بلاد العرب وصميمها الحجاز ونجد فلم يعثر حتى الآن على شيء من النقوش الجاهلية فيها[1] .

واستنتج ناصر الدين الأسد من ذلك : أن العرب لم يكونوا أميين بمعنى الجهل بالكتابة . ذلك أنهم كانوا يكتبون في جاهليتهم ثلاثة قرون على أقل تقدير بهذا الخط الذي عرفه بعد ذلك المسلمون . وقد أصبحت معرفة الجاهلية بالكتابة معرفة قديمة أمراً يقيناً[2] .

سعى جولد تسيهر إلى التأكيد على أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا متعلمين ، إذ كانوا يحملون صحفهم ليدوّنوا فيها المعلومات التي يتلقونها من الرسول « صلى الله عليه وسلم » . فانتقال الصحابة رضي الله عنهم من الأمية إلى العلم لا يمكن في نظر هذا المستشرق أن يتمّ في ظرف وجيز كالذي قضوه إلى

---

(١) ناصر الدين الأسد ، مصادر الشعر الجاهلي ، ٣٢ .

(٢) م . س ص ٣٣ .

جانب الرسول صلى الله عليه وسلم . وأراد جولد تسيهر أن يؤكد هذه المعرفة فقال إن ما دونه الصحابة في صحفهم سموه متناً . وهذه الكلمة جاهلية النشأة وتفيد الكتابة . فهذه الأخيرة كانت معروفة في الجاهلية .

واستدل جولد تسيهر . . وغيره على أن لفظة أمّي وما اشتق منها والواردة في القرآن الكريم لا تفيد الجهل بالقراءة والكتابة ، بما رواه الطبري في تفسيره لقوله تعالى : « ومنهم أمّيون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون »[1] . عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : الأميون قوم لم يصدقوا رسولا أرسله الله ولا كتاباً أنزله الله[2] .

إن الأهداف التي سعى إلى تحقيقها المدافعون عن رقي المستوى التعليمي لعرب الجاهلية تتمثل في أمرين على أقل تقدير :-

(أ) القول بأن الإسلام لم يشارك في بناء الحضارة وتطور العلوم . فكثير من نصوصه ومصطلحاته هي فهم جديد لنصوص دينية وحضارية كانت منتشرة في الجزيرة العربية والبلدان المجاورة ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد تلقاها وقرأها .

(ب) حرمان الحضارة الإسلامية من كل طرافه ، واتهام العلماء المسلمين بالسطحية . فهم لا يحللون النصوص ولا ينقدونها نقداً علمياً . . فهم يكتفون بنقل الأخبار وتوثيقها إذا ما عدلوا رواتها . ولذلك وقعوا فى

---

(١) البقرة ، ٧٨ .

(٢) الطبري ، جامع البيان ، ٢٥٧/١ .

الأخطاء والمتناقضات وشوهوا الحضارة الإنسانية بما نقلوه من نصوص خاطئة .

والمتدبر في حجج وبراهين هؤلاء المدافعين عن مستوى العرب العلمي يلاحظ أنهم وقعوا في أخطاء منهجية وأخرى موضوعية .

فهل يكتفي الباحث بوجود ثمانية نقوش بعيدة عن مكة والمدينة والطائف ليتكرم على العرب قاطبة بأنهم كانوا يعرفون القراءة والكتابة . فلو وجدت بعد أربعة قرون من الآن آثار لآلات حديثة وتقنيات متطورة اقتناها في عصرنا الحاضر بعضهم ، واستخدمها في بلد من البلدان المتخلفة ، فهل يجوز إذاك التعميم والقول بأن هذا البلد كان في القرن العشرين متقدماً وبه تقنيات متطورة ؟ وهل قال القرآن الكريم إن بعض عرب الجاهلية لم يكن باستطاعتهم أن يكتبوا وأن ينقشوا وأن يعتنوا بشعرهم وبشعر غيرهم ، وأن يعلقوا القصائد في فناء الكعبة أو أن يكتبوها بماء الذهب ؟

هل ورد في القرآن الكريم ما يفيد أن الأميين لا يعلمون أن هناك أناساً من بينهم وفي الأمم المجاورة يكتبون ويحسبون ويقرؤون الكتب والصحف ؟ ألم تذكر الأخبار أن الرجل الكامل عند العرب في الجاهلية وأول الإسلام هو الذي يكتب بالعربية ويحسن العوم والرمي[1] .

لقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم ، عارفاً بأن بعض العرب كانوا يمارسون الكتابة ، ففي الفترة العاشرة من الوثيقة التي كتبها لثقيف قال : « وما

(١) ابن سعد ، الطبقات ٢/٩١ .

كان لثقيف من دين في صحفهم ، اليوم الذي أسلموا عليه في الناس . فإنه لهم »[1] .

فالرسول صلى الله عليه وسلم ، لم يجد في ذكر صحف ثقيف التي ضمت ما لهم وما عليهم من ديون تعارضاً مع ما وصف الله تعالى به العرب من أمية لأنه يعلم أن القرآن الكريم ، يتحدث عن العرب في مجموعهم لا عن أفرادهم .

فعندما نقول اليوم إن العرب جاهلون بتقنيات غزو الفضاء وعلومه فهل يعني ذلك أنّنا ننكر وجود جماعة قليلة منهم يعمل أفرادها في هذا الميدان .

لقد كان عرب الجاهلية أميين كما وصفهم القرآن المجيد رغم وجود النقوش الثمانية والمعلقات الشعرية وغيرها من الأخبار التي تذكر أن هذا الفرد أو ذاك كان قارئاً وكاتباً ، وكان العلماء المسلمون على بينة من هذه الأمية لذلك ناقشوا كل من سعى إلى تأويل لفظة الأميين لتدل على غير هذا المفهوم .

فالطبري وهو الذي أورد الرواية المنسوبة لابن عباس والتي أوّلت كلمة أميين بأنهم الـذين لم يصدقوا رسولاً أرسله الله تعالى ، قد أورد قبلها خمس روايات فسرت الأميين بأنهم الجماعة من اليهود الذين كانوا لا يقرؤون ولا يكتبون .

ولم يكتف الطبري بذكر الروايات بل علق عليها بقوله : « ومنهم أميون » ومن هؤلاء اليهود الذين قص الله قصصهم في هذه الآية . فالمقصود بالأميين في الآية اليهود . واليهود يؤمنون بموسى ، فهم أميون لأنهم لا يعرفون القراءة والكتابة .

وبعد ذكر رواية ابن عباس رضي الله عنهما قال : وهذا التأويل على خلاف ما يعرف من كلام العر ب المستفيض بينهم ، وذلك أن الأمي عند العرب هو الذي لا يكتب[2] .

---

(١) محمد حميد الله ، الوثائق السياسية ، ص ٢٨٥ الوثيقة ١٨١ .

(٢) الطبري : جامع البيان ، ٢/٢٥٩ .

بقى علينا أن نقف عندما استبعده جولد تسيهر مِن تحـــوّل بعض الصحابة من الأمية إلى معرفة القراءة والكتابة ، لنشير إلى أنه هو نفسه قد خضع لهذا التحول السريع .

فقد أصبح قادراً على الغوص في أسرار اللغة العربية ومتعاملاً مع ما ضمّته مكتبتها من كنوز صدرت عن أئمة القرآن والحديث والفقه والعقيدة . ولم تتجاوز فترة أخذه عن علماء العربية والمهتمين بالتفسير واتجاهاته والحديث ومصطلحه والفقه واقضيته من حيث الامتداد في الزمن المدة التي قضاها أبو هريرة رضي الله عنه متعلماً عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، فهل يجوز لنا أن نستنتج من ذلك أنّ المجتمع المجري الذي عاش فيه كان يمارس العربية نطقاً وكتابة و يستخدمها أداة للتفكير ؟

وهكذا يتضح أن براهين المدافعين عن رقي المستوى العلمي لعرب الجاهلية لا تستقيم عند النقد . فالعرب كانوا أميين في جملتهم وحظهم من المعرفة كان قليلاً ، والرسول صلى الله عليه وسلم ، أتى ليبشرهم ولينذرهم بالدرجة الأولى ، وليفتح أمامهم أبواب العلم والمعرفة ، وأنه اتبع سياسة تعليمية يجدر بالبحث العلمي أن يتناولها بالدرس ليحدد مضمونها ، وليبين خضائصها ومناهجها ومؤسساتها حتى يستطيع بعد ذلك الوقوف على أثرها في تطور العلوم من حيث المضمون والمنهج .

مضمون سياسة
الرسول صلى الله عليه وسلم التعليمية

روى البخاري عن عبد الله بن عمر أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : بينا أنا نائم أتيت بقدح لبن فشربت حتى إني لأرى الري يخرج من أظفاري . ثم أعطيت فضلي عمر بن الخطاب . قالوا فما أولته يارسول الله ؟ قال : العلم[1] .

عنون البخاري لهذا الحديث بقوله « فضل العلم » وهو نفس عنوان الباب الأول من أبواب كتاب العلم . وظن بعضهم أن البخاري قد كرر العنوان في حين أن العنوان الأول يفيد الفضيلة والثاني يفيد الزيادة كما ذهب إلى ذلك ابن حجر حين قال : الفضل هنا بمعنى الزيادة أي ما فضل عنه والفضل الذي تقدم في أول كتاب العلم بمعنى الفضيلة فلا يظن أنه كرره[2] .

ويمكن للباحث أن يضيف إلى ماقاله ابن حجر وغيره من الشراح أن الحديث يشير إلى نوعين من العلم في الإسلام : الأول يمثله قوله صلى الله عليه وسلم « أتيت بقدح لبن » فهذا القدح من اللبن لم يكتسبه الرسول صلى الله عليه وسلم اكتساباً ، ولم يعمل على الوصل إليه ، ولم يتدخل عقله أو حواسه للحصول عليه .

فهو الوحي بنوعيه المتلو والمروي . . وله خصائص من أهمها أنه ثابت في نصه .

أما الثاني فيمثله قوله عليه الصلاة والسلام : إنى لأرى الري يخرج من أظفاري ، ويشير إلى أن العلم الثابت كان مصدراً لعلوم كثيرة تعود على الإنسانية بالخير . فهي زيادة أصلها النوع الأول .

فالحديث يحدد مضمون سياسة الرسول صلى الله عليه وسلم التعليمية ويبين

---

(١) خ - ٣ العلم / ٢٢ .

(٢) ابن حجر ، الفتح ١/١٤٦ .

أنه يتكون من أصلين :-

(الأول) : ونستطيع أن نسميه الجذع المشترك وهو القدر الضروري الذي يحتاج إليه في بناء العقيدة وفي القيام بالعبادات وفي ممارسة المعاملات حسب الأحكام التي بينها القرآن الكريم والسنة النبوية .

والأحاديث التي جاءت لتبين هذا المضمون أو لتصفه كثيرة : أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر :

(١) حديث جبريل عليه السلام الذي رواه عمر بن الخطاب ، والذي قال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم للصحابة بعد ذهاب جبريل : « هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم »[٢] .

(٢) ما رواه مالك في الموطأ عن ابن شهاب الزهري « أن عمر بن عبد العزيز ، أخر الصلاة يوماً فدخل عليه عروة بن الزبير ، فأخبره أن المغيرة ابن شعبة أخّر الصلاة يوماً وهو في الكوفة ، فدخل عليه أبو مسعود الأنصاري فقال : ما هذا يامغيرة أليس قد علمت أن جبريل نزل فصلىّ فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال بهذا أمرت [٢]

(٣) أخرج الأمام أحمد عن عدي بن حاتم أنه قال : « أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعَلمني الإسلام ونعت لي الصلاة وكيف أصلي كل صلاة لوقتها[٣] .

(٤) وعن عبد الله بن مسعود قال : « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، علم فواتح الخير وجوامعه أو جوامع الخير وفواتحه وإنا كنا لا ندري ما نقول في صلاتها حتى علمنا [٤] .

(٥) عن فضالة الليثي قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأسلمت وعلمني حتى علمني الصلوات الخمس لمواقيتهن »[٥] .

(١) انظر مسلم ، الايمان / ١ .
(٢) ط١ كتاب وقوت الصلاة / ١ .
(٣) حم ٤/٢٥٧ .
(٤) حم ١/٤٠٨ .
(٥) حم ٤/٣٤٤ .

(٦) روي عن أبي موسى الأشعري أنّه قال : « إن رسول صلى الله عليه وسلم خطبنا فبيّن لنا سنّتنا وعلمنا صلاتنا »[١] .

ومضمون هذا النوع مستمد من الآيات القرآنية ومن الأحكام المنزّلية على الرسول صلى الله عليه وسلم من طرق الوحي وهذا العلم هو الذي سماه ابن عبد البر العلم الأعلى فهو موروث عن النبوة .

وهو الذي قصدته بعض الأحاديث ومنها :-

١ - ما رواه أنس بن مالك عن الرسول صلى الله عليه وسلم من أنه قال : « إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويثبت الجهل »[٢] .

٢ - ما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤوسا جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا[٣] .

٣ - ما رواه البخاري معلقاً في باب كيف يقبض العلم قال : وكتب عمر ابن عبد العزيز إلى أبي بكر بن حزم ، آنظر ما كان من حيث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاكتبه فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء ولا تقبل إلا حديث النبي صلى الله عليه وسلم ولتفشوا العلم ولتجلسوا حتى يعلم من لا يعلم فإن العلم لا يهلك حتى يكون سراً[٤] .

(الثاني) : ونسميه العلم الفرعي أو العلم الزائد وهو الذي تفرع عن العلم الأعلى وتنوعت مصادره وارتبطت بالإنسان واستخدمت الأجهزة والوسائل البشرية مع الاستنارة بالعلم الأعلى ، ومن العلوم الفرعية التي جاءت في مضمون سياسة الرسول صلى الله عليه وسلم التعليمية ، علم اللغات نطقاً وكتابة .

---

(١) م ٤ - الصلاة ١٦ (٤٠٤) .
(٢) خ ٣ - العلم / ٢١ ح ١ .
(٣) خ ٣ - العلم / ٣٤ ح ٢ .
(٤) خ ٣ - العلم / ٣٤ .

لسنا بصدد تعريف علم اللغات ولا بيان نشأتها واختلافها وتطورها ، ولكن نشير إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يحث بعض الصحابة على تعلم اللغات غير العربية لأنه عليه الصلاة والسلام يدرك أن ذلك يسهل التخاطب مع الأمم المجاورة للمسلمين . والاطلاع على ما كتب بهذه اللغات بطريقة مباشرة .

فقد روى عن زيد بن ثابت أنه قال : « أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم فتعلمت له كتاب يهود . وقال إني ما آمن يهود على كتابي فتعلمته فلم يمر بي نصف شهر حتى حذقته . فكنت اكتب له إذا كتب . واقرأ له إذا كتب إليه »[1] .

ليس من الضروري في بحثنا هذا التوقف عند المدة التي قضاها زيد ابن ثابت من لحذق اللغة التي كان اليهود يكتبون بها التوراة ، فتلك قضية قد تجد لها بعض التأويلات ، كأن يقال : إن زيد بن ثابت كانت له معرفة أولية بهذه اللغة وأنّه أتقنها في المدة المذكورة في الحديث بأن خصص لها معظم وقته وتفرغ لها التفرغ الشرعي ، ولكن المهم أن نبين أن الحاجة دعت المسلمين إلى أن يتعلم بعضهم لغة اليهود حتى يتمكنوا من قراءة النصوص المدونة بها ومن أن يكتبوا بها إذا دعت الحاجة إلى ذلك ، ففي تعلم هذه اللغة حماية للإسلام وأهله من التحريف والتزوير . فقد جاء في الحديث « إن أهل الكتاب كانوا يقرؤون التوراة بالعبرية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم (الحديث)[2]

قد يظن أنّ الحديث ينهي عن الأخذ عن اليهود مطلقاً ، وهذا لا يستقيم فالقرآن الكريم قد حاور اليهود وكذلك فعل الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد سألهم وأجاب عن أسئلتهم .

فالنهي هنا مقيد أي لا تأخذوا عنهم ما سكت القرآن الكريم والسنة العطرة عنه . ولا تأخذوا عنهم كل ما يدعون أنّهم يقرؤونه لكم من كتبهم فمن عادتهم

---

(١) د . ١٩ / ٢ (٣٦٤٥) .

(٢) خ ٩٦ / ٢٥ ح ١ .

تحريف الكلم عن مواضعه ، وطمس الحقيقة بطرق مختلفة . فإذا ما تعلم المسلم لغتهم وقرأ نصوصهم قراءة مباشرة فإنه يوصد أمامهم أبواب التضليل ، ويجعلهم يدركون أن المسلمين لا تنفع معهم الأكاذيب ، فهم على اطلاع بالنصوص المكتوبة بالسريانية وغيرها من اللغات . وهكذا يتضح أن مضمون سياسة الرسول صلى الله عليه وسلم التعليمية قد وضع مكانة لتعلم لغة اليهود . وهذا لا يعني أن الأمر يقتصر عليها . فالحاجة قد تدعو المسلمين إلى تعلّم لغات لن يستطيعوا بدونها المشاركة في بناء الحضارة الإنسانية ، أو هي تفتح أمامهم أبواب القوة والمناعة ، والخروج من دائرة السيطرة التي تفرضها عليهم بعض الأمم .

فالمسلم اليوم مطالب بأن يتقن إلى جانب لغته العربية بعض اللغات الأخرى لأنه بدون ذلك يعد أميا . فالأمي في عصرنا وبالنسبة لنا العرب ليس ذلك الذي لا يحسن القراءة والكتابة . وإنما هو الذي لا يحسن من اللغات إلا لغته الأصلية .

والأمي اليوم هو الذي يتعلم لغة قوم ولا يستخدمها في البحث والاكتشاف والاختراع وإدراك أسباب قوة أصحابها والاطلاع على جوانب ضعفهم . . الأمي اليوم هو الذي يتعلم لغه قوم ليقلدهم في مظاهر حياتهم اليومية وفي عاداتهم وتقاليدهم دون أن ينفذ إلى لب حضاراتهم وأسباب مناعتهم . . فهو كالإسفنجة تمتص الماء ثم ترجعه كما هو إذا ما تسلطت عليها قوة خارجية . أما اللبيب فهو الذي يتعلم لغة قوم ليأمن شرهم وليضيف لبنة في صرح الحضارة الإنسانية . وهذا ما ورد في حديث زيد بن ثابت المتقدم .

إن تعلم أية لغة يبقى ناقصاً إذ لم يجمع بين القدرة على التخاطب بتلك اللغة وكتابتها . فالكتابة لها مكانة مهمة في المحافظة على العلم والتعمق فيه ، ونقله إلى الأجيال ، لذلك اهتم الإسلام بالقراءة والكتابة فأول ما نزل من القرآن الكريم هو الأمر بالقراءة ، قال تعالى : « اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علّم الانسان مالم

يعلم»[1] وقال عز من قائل : « ن والقلم وما يسطرون »[2] .

وجاء في سياسة الرسول صلى الله عليه وسلم التعليمية أن الكتابة من مضمونها ، فقد حث عليه الصلاة والسلام بعض المسلمين على أن يتعلموا الكتابة؛واشترط على بعض أسرى بدر أن يفدوا أنفسهم بتعليم عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة . لقد كان عليه الصلاة والسلام على علم بالصعوبات التي تعترض الكتابة فالعارفون بها قليل عددهم ووسائلها صعبة وتقنياتها لا توفر للنص المكتوب الضمانات الكافية ، ومع ذلك فهي ضرورية للمحافظة على النص المنزل وعلى ما ينتجه الإنسان من نصوص؛فمن الضروري أن يتعلمها بعض الصحابة وأن يهتموا بها وأن يسعوا إلى نشرها ، وفعلاً توصل بعض الصحابة إلى ذلك .

قال عبادة بن الصامت « علمت ناساً من أهل الصفة الكتابة والقرآن »[3] وعن الّشفاء بنت عبد الله أنّها قالت : « دخل عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا عند حفصة فقال لي : « ألا تعلمين هذه رقية النملة[4] كما علمتها الكتابة »[5] .

فعبادة بن الصامت وقد كان عارفاً بالخط العربي تحمل مسؤولية تعليم المسلمين الراغبين في حذق الكتابة إلى جانب حفظ القرآن الكريم حتى يكثر عدد الكتاب وينتشر هذا الفرع من العلم الذي يساهم أصحابه بقسط وافر في المحافظة على القرآن ونقله إلى الأمة الإسلامية كما نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيسهمون في تحقيق وعد الله تعالى الوارد في قوله عز وجل : « إنّا نحن نزلنال الذكر وإنّا له لحافظون » .[6] .

---

(١) العلق : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ .
(٢) القلم : ١ .
(٣) حم : ٥/٣١٥ .
(٤) النملة : قروح .
(٥) د - ٢٢ طب/ ١٨ (٣٨٨٧) .
(٦) الحجر : ٩ .

إن تعلم الكتابة إلى جانب القرآن الكريم يفسح المجال للعلوم الفرعية التي يمكن أيضاً وصفها بالعلوم البشرية لتسهم في حفظ العلم الأعلى المتصل بالوحي وتعلمه ونشره .

أما الشفاء بنت عبد الله واسمها ليلى وهي قرشية عدوية أسلمت قبل الهجرة فكان لها نصيب من المعرفة جعل الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعمر ابن الخطاب يكلفانها ببعض الأمور . فالرسول صلى الله عليه وسلم قد طلب منها أن تعلم زوجه حفصة الرقية من القروح التي تصيب جسم الإنسان ، كما علمتها قبل ذلك الكتابة فأسهمت في نشر العلم .

ويقال إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قد ولاها شيئاً من أمر السّوق[1] .

فالكتابة . في الأحاديث النبوية فرع من فروع العلم البشري . والإنسان في حاجة إليها في كثير من أمور دينه . فالرسول صلى الله عليه وسلم قد عمل على أن يكون من بين أصحابه كتاب للوحي ، ولبعض الأمور كالعقود والعهود . فقد نعتت روايات بعض الصحابة بأنهم من الكتاب .

جاء في حديث لأبن عباس رضي الله عنهما أنّ معاوية كان كاتب الرسول صلى الله عليه وسلم[2] .

ووصف حديث آخر حنظلة الأسدي بأنه من كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم[3] .

وجاء في حديث صلح الحديبية إن مبعوث قريش سهيل بن عمرو قال للرسول صلى الله عليه وسلم هات آكتب بيننا وبينكم كتاباً . فدعا النبي صلى الله عليه وسلم الكاتب[4] .

---

(١) انظر ترجمتها في الاصابة في تمييز الصحابة ٤/٣٤١ ترجمة ٦٢٢ .
(٢) انظر الحديث عند أحمد ١/٣٣٥ .
(٣) انظر الحديث عند مسلم ٤٩/ التوبة / ٣ (٢٧٥٠) .
(٤) خ - ٥٤ شروط / ١٥ .

وهكذا يتضح أنّ سياسة الرسول صلى الله عليه وسلم التعليمية جعلت من تعلم اللغات فرعاً من فروع العلم . ونستطيع التوسع في هذا المجال فنقول إن كل ما يساعد على تعلم اللغات نطقاً وكتابة وتحليلاً ومقارنة يدخل في هذا المضمون . وأنّه يساعد على المحافظة على العلم الأعلى وفهمه وبفضله يستطيع الانسان أن يقوم على أحسن وجه بما كلفه الله تعالى .

وإلى جانب الاهتمام بعلم اللغة وحث المسلمين على أن يتخصص بعضهم أو جلهم في تعلّم بعض اللغات وما يتصل بها من مباحث ودراسات ، فقد أشارت بعض الأحاديث إلى علم التاريخ ، وهذا الأمر يعد منطقياً بالنسبة للإسلام ، فالقرآن الكريم ، أورد حقائق تتصل بما كان عليه الإنسان من أصول عقديه ومناهج سلوكية . وبما حدث بعد ذلك من تحول أدى بالإنسان إلى الشرك بعد التوحيد عندما اجتالت الشياطين عباد الله فجعلتهم يخيرون الانحراف والاعتداء على الاستقامة والعدل . وفيه أيضاً قصص الأنبياء الذين بعثهم الله تعالى ليخرجوا أممهم من الظلمات إلى النور ، وليخلصوا الحقيقة من الأدران ، وليعيدوا للعقل مكانته التي أعدها الله له . كل هذه القضايا تمثل جانباً من صلة الإسلام بالتاريخ ففيه رواية للأخبار واستخلاص للعبرة منها وتوظيفها للحاضر والانطلاق منها لأعداد المستقبل . وفي هذا الأطار يندرج ما روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، من انه قال : « تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم ، فإن صلة الرحيم محبة في الأهل مثراة في المال منسأة في الأثر »[1] .

فهذا الحديث وإن لم يرق إلى درجة الصحيح إلا أنه يساير التوجيهات الإسلامية . فآخرة يتناول قضية من أهم قضايا تماسك المجتمع ، أما أوله فيهتم بفرع من فروع التاريخ . وهو التاريخ الخاص أي الذي يتصل بأخبار الأفراد أو الجماعات الصغيرة ، لينطلق بعد ذلك إلى التاريخ العام وهو تاريخ الأمم والشعوب والأحداث المهمة » .

---

(١) ت ٢٨ ، البر والصلة ٤٩ (١٧٩) وعلّق عليه بقوله : هذا حديث غريب من هذا الوجه .

والمتـدبـر في الحـديث يلاحظ التبعيض الـوارد في قولـه « من أنسابكم . ويستخلص منه الدعوة إلى الاختيار أي إلى النقد . فلا يؤخذ كل خبر يتصل بالانساب ، وإنما يجب اختيار الصحيح من الأخبار حتى لا يستخدم هذا العلم لنشر الكذب أو التعالي أو التباهي أو بعث الحمية الجاهلية وإنما ينطلق منه لما هو جليل كصلة الأرحام وغيرها من الأهداف النبيلة التي يسعى علم التاريخ إلى تحقيقها والاستنارة بها .

وإذا انتقلنا من مضمون سياسة الرسول صلى الله عليه وسلم المتصل بعلم التـاريخ إلى ما له صلة بالـطب لاحظنا أن الرسول صلى الله عليه وسلم قدم للمسلمـين بعض الإشـارات المتصلة بهذا الميدان ، وهي تدعـو الإنسـان إلى البحث والتعمق لتطوير ما جاء في هذه الإشارات ولاستخلاص العبرة منها حتى تكـون دراسـاتـه ومبـاحثـه مستجيبـة للحقـائق العلمية والـوسـائـل المتـوفـرة ، ولتعلم إرادة الله تعالى ومشيئته . لقد ذهب بعضهم إلى القول بأن « ما أتى به محمد في هذا المجال هو من أمور الدنيا مما لا علاقة للدين به فلا فرق عندئذ في ذلك بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين غيره من البشر لما ورد في صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم من أنّه قال، « إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر »[1] .

ولمـا نقله السـيرّخسي في أصوله من أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «إذا أتيتكم بشيء من أمر دينكم فاعملوا به وإذا أتيتكم بشيء من أمر دناكم فأنتم أعلم بأمر دينكم[2]«إن هذا القـول لا ينفي أن تكون العلوم الطبية داخلة في مضمون سياسة الرسول التعليمية ، ومع ذلك فنحن نتوقف عنده لأنه يسوي بين أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم الصحيحة وبين ما يصدر عن البشر فيما ينعته بأنـه من أمور الدنيا ، فكأنه يقول إن مضمون سياسة الرسول صلى الله عليه وسلم التعليمية قد يخطيء كما تخطيء بعض الخـطط التعليمية التي يضعهـا

---

(١) م ٤٣ الفضائل / ١٤٠ (٢٣٦٣) .

(٢) موريس بوكـاى ، دراسـات الكتب المقـدسـة في ضوء المعـارف الحديثة - ص ٢٧٨ الترجمة العربية - دار المعارف ، مصر .

البشر . إن صاحب القول ينطلق من حديث صحيح السند يطابق متنه المنقول والمعقول ويفيد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال للمسلمين إكذا امرتكم بما هو وحي منزل فسلموا ، واعملوا بما جاء فيه من أمر أو نهي ، أو ماشابههما . أما إذا صدر عني اجتهاد لم ينزل وحي باقراره أو برده فتستطيعون الأخذ به أو الاجتهاد معه ، وفي الحالتين يكون المسلمون في مأمن من الاستمرار على الخطأ مادام الرسول صلى الله عتليه وسلم معهم ، ذلك أن الوحي لا يتركه على الخطأ في جميع الحالات .

أما الحديث الثاني ، الذي نقله السرخسي فلا يرتقي إلى الصحيح . وقد أورده في حادثة تأبير النخل التي كانت سبب ورود الحديث عند مسلم أيضاً ، وهي تؤكد ما ذكرناه آنفاً من أن الرسول صلى الله عليه وسلم معصوم من الاستمرار على الخطأ . فقد، اجتهد اجتهاداً خالف قوانين التلقيح . ثم جاءت التجربة لتبين تلك المخالفة فلم يتشبث عليه الصلاة والسلام باجتهاده ، ولم يقل إن الوحي وافقه . ، بل أدرك عليه الصلاة والسلام أن حكمة الله تعالى تركت بيان ذلك للتجربة . ولما اتصف به الرسول صلى الله عليه وسلم من صفات الكمال . إن التفريق بين أمور الدين والدنيا الذي سعى بعضهم إلى التأكيد عليه هو الذي دفع بعضهم إلى القول بأن المسلم يستطيع مخالفة الخبر الصحيح المروي عن الرسول صلي اة عليه وسلم إذا كان متصلاً بأمور الدنيا .

إن هذا المذهب يكون مقبولاً في الأحاديث الضعيفة التي يتضمن متنها حكماً قطعياً بينت التجربة والعلم خطأه بدرجة تقترب من اليقين . أما الأحاديث الصحيحة السند والمتن فعلى الإنسان التعامل معها بالطرق التي بينها علماء الحديث ونقاده . فجمعها ومعرفه الناسخ والمنسوخ منها ودراسة سبب ورودها وسائل قد تبين للباحث جوانب غابت عن الدارسين . وإذا ما تعذر ذلك فعليه أن يفتح أبواباً للعلم انطلاقاً من هذه الأحاديث ، فلعل التجربة تثبت في يوم من الأيام صحتها علمياً وتمكن الإنسانية من معرفة قد تبقى محجوبة عن البشر مدة قد تطول أو تقصر .

بهذا المنظار يمكن للباحث أن يؤكد على أن الحديث النبوي دون أن يفصل في العلوم الطبية قد أشار إلى بعضها وقدّم للإنسان في العصر النبوي بعض الأدوية ، وحث المتأخرين على البحث والتنقيب والإيمان بأنه لا يوجد داء بدون دواء . والوجود هنا هو الوجود بالقوة لا الوجود بالفعل فما على الإنسان إلا أن يتعلم ويبحث . وهذا ما يشير إليه الحديث النبوي : « ما أنزل الله داء إلا نزل له شفاء »[1] .

ويتأكد جانب الحث على الاجتهاد لاكتشاف الأمراض وسببها والأدوية وتركيبها ومقارنتها ووقت تناولها وطريقة ذلك بما جاء في بعض الروايات من أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال في آخر الحديث : علمه من علمه وجهله من جهله[2] .

فالعالم بالطب هو الذي يعرف الدواء ويستخدمه استخداماً يفضي إلى الشفاء في حين أن الجاهل يغيب عنه الدواء أو تغيب عنه طريقة استعماله أو مقداره .

ومن الجدير بالملاحظة أن ما جاء في الأحاديث النبوية يشير إلى أن الطب نوعان : جسمي مادي ، ونفسي . فما له صلة بالرقية والدواء من العين فهو طب نفسي .

وهكذا يتضح أن الأحاديث النبوية دون أن تقدم ديواناً في الطب أو وصفاً لكل داء ولكل دواء فتحت أمام الفكر البشري أبواب البحث وحثت المختصين على التعمق في الدراسة والاكتشاف .

إن العلوم التي جاء ذكرها في الأحاديث النبوية ليست كلها نظرية فالبعض منها هو من العلوم التطبيقية إذ تهتم بتدريب الجسم وتعويده على حركات تمكنه من اكتساب قدرات يستطيع بفضلها بلوغ أهداف خطط لها العقل .

---

(١) خ - ٧٦ الطب / ١ .

(٢) انظر فتح الباري ١٠/ ١١٠ .

فقد حدث أبو سلام الدمشقي عن خالد بن يزيد الجهني قال : كان عقبة ابن عامر يمر بي فيقول : ياخالد آخرج بنا نرمي . فلما كان ذات يوم أبطأت عنه فقال : ياخالد تعال أخبرك بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتيته فقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة : صانعه يحتسب في صنعه الخير ، والرامي به ومنبله وارموا وأركبوا ، وإن ترموا أحب إلى من أن تركبوا[1] .

ففي الحديث إشارة إلى علوم تعادلها اليوم علوم الصناعات الحربية والتدريب والتمرن على قيادة الطائرات والدبابات والصواريخ ، وغيرها من العلوم التي تفننت بعض الدول في اتقانها وتطويرها . فأصبحت بفضلها قوية منيعة تتحكم في أجزاء مهمة من المعمورة .

والخلاصة فإن مضمون سياسة الرسول صلى الله عليه وسلم التعليمية يتسع لكل ما يمكن الإنسان من أداء الوظيفة الشاملة التي كلفه الله بها . هذه الوظيفة التي وصفها القرآن الكريم بأنها أمانه وبأنها عرضت على بعض المخلوقات قال تعالى : « إنّا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً »[2] .

والتفسير الذي يُطمأن إليه هو الذي يربط الأمانة بالعقل وبخلافة الله في الأرض وهي الخلافة التي تحمل كل معاني التكليف . وترتبط بالعلم ارتباطاً أساسياً . قال الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور في تفسير الآية : « والقول في حمل معنى الأمانة على خلافة الله تعالى في الأرض مثل القول في العقل ، لأن تلك الخلافة ماهيأ الإنسان لها إلا العقل كما أشار إليه قوله تعالى : « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل في الأرض خليفة » ثم قوله : « وعلم آدم الأسماء كلها » ، فالخلافة في الأرض هي القيام بحفظ عمرانا ووضع الموجودات فيها في مواضعها واستعمالها فيما استعدت إليه غرائزها .[3] وهذا لا يكون إلا بالعلم بنوعيه لذلك

(١) ن - ٢٨ ، الخيل / ٨ .
(٢) الأحزاب ٧٢ .
(٣) التحرير والتنوير ٢٢ / ١٢٩ .

أشارت الآية إلى أن الآفة التي تمنع الإنسان من الوفاء بالأمانة هي الجهل . فكل علم يمكن الإنسان من القيام بالتكليف بالمعنى الشامل للكلمة يدخل في مضمون سياسة الرسول صلى الله عليه وسلم التعليمية .

وللعلم في الأحاديث النبوية بعض الخصائص منها : ١ - الاستمرارية . ٢ - العموم . ٣ - الكسب .

٩ - خصائص العلم :

١ - الاستمرارية :

اقترنت قصة خلق آدم عليه السلام بنشأة العلم ، قال تعالى : « وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين[1] .

والتفسير الذي يطمأن إليه هو الذي يبين أن الله تعالى مكن آدم من العلم وذلك بالقدرة على تسمية الأشياء والنطق بمدلوها للتعبير عن مقصوده وتبليغه إلى غيره ، إن هذه التسمية مرتبطة ارتباطاً جذريا بالتقدم الحضاري . فالذي يبحث ويعلم ويضع الآلة هو الذي يسميها وما على الآخرين إلا أن يأخذوا عنه التسمية كما أخذوا عنه استخدام الآلة . وهذا الأمر حاصل لنا اليوم معشر العرب فإننا نستورد الآلات واسماءها والتقنيات وطرق أدائها ويسعى بعضنا إلى أن يعرب الأسماء فيستعصي الأمر عليه ونختلف وننسى أنه لو كتب لنا أن نكون نحن المخترعين فإن الأسماء ستكون عربية لا محالة .

وقد علمنا الله تعالى بهذه الحقائق وبين لنا أن الإنسان يحتاج إلى الأشياء مادامت الحياة مستمرة ، وأنه في حاجة إلى تسميتها أي إلى استخدام العلم . فالعلم بدأ مع الإنسان ولن ينتهي إلا بفناء الإنسانية كما جاء ذلك في كثير من الأحاد، يث النبوية .

---

(١) البقرة ، ٣١ .

(أ) عنون البخاري للباب الواحد والعشرين من كتاب العلم بباب رفع العلم وظهور الجهل . وقال ربيعة لا ينبغي لأحد عنده شيء من العلم أن يضيع نفسه ثم خرج حديثين عن أنس بن مالك . جاء في أولهما أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « إن من اشراط الساعة أن يرفع العلم ، ويثبت الجهل ويشرب الخمر ويظهر الزنا[1] .

وجاء في الثاني أن الصحابي الجليل سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من أشراط الساعةالله أن يقل العلم ويظهر الجهل ويظهر الزنا ، وتكثر النساء ويقل الرجال حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد[2] .

(ب) أورد البخاري خبر الكتاب الذي كتبه عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر ابن حزم ، مرتين ، جاء في الأولى معلقاً وفي الثانية مسنداً موصولاً ، وجاء فيه أن عمر بن عبد العزيز قال لأبي بكر بن حزم : « انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فآكتبه فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء ، ولا تقبل إلا حديث النبي ولتفشوا العلم ولتجلسوا حتى يعلم من لا يعلم فإن العلم لا يهلك حتى يكون سراً .

ومما يلاحظ أن الرواية المتصلة تقف عند قوله وذهاب العلماء[3] وبعد ذلك خرج البخاري حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يُبق عالماً اتخذ الناس رؤوسا جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا[4] .

فهذه الروايات تبين أن العلم سوف يبقى مع الإنسان في الحياة الدنيا وأن ذهابه علامة من علامات الساعة وأن الله تعالى قضى وقضاؤه الحق أن يبدأ العلم مع الإنسان وينتهي معه .

---

(١) خ ٣ علم ٢١ ح ١ .
(٢) م . س ح ٢ .
(٣) انظر فتح الباري ١ / ١٥٨ .
(٤) خ . (٣) . علم ٣٤ .

فلا يجوز لعالم أن يقول إن العلم قد ختم بما توصل إليه هو من نتائج أو أن أبـواب العلم قد أغلقت بما كتبـه هو أو استنبـطه من معـادلات أو تجارب أو اخـتراع . فالعلم لا يعرف النهاية ولا يرفع عن الكون إلا إذا حكم الله تعالى بذلك فأذهب العلماء الواحد تلو الآخر .

أما قبل ذلك فلن يخلو الكون منن العلماء ، فقد، روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنّه قَال : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله . قال البخاري . وهم أهل العلم[1] .

لقـد قيدت بعض الأحـاديث الـطائفة المذكورة بأنهم الذين يقاتلون على الحق[2] ؛ وذكرت آثار أنهم أهل الحديث[3] .

والذي يطمئن إليه الباحث أن العلماء هم الذين يبقون ظاهرين على الحق ، فيبينون للناس أوامر الله تعالى ونواهيه ويشرحون لهم ماكلفوا به من قول وعمل وسلوك .

وحتى تتحقق الاستمرارية اقتضت حكمة الله تعالى ولطفه بعباده أن خلق فيهم القدرة على التعلم . ومن هنا جاءت الخاصية الثانية للعلم في الإسلام وهي العموم بمعنى أن العلم حق مشاع بين كل الناس .

العلم حـق مشـاع :

وهب الله الإنســان قدرات وأجهـزة تمكنـه من تحصيل العلم . فالعقـل والحواس من النعم المشتركة بين البشر لا فضل فيها لجنس على آخر إلا بمدى استعمالها وطرقه .

---

(١) خ الاعتصام / ١٠ .

(٢) م ايمان / ٢٤٧ .

(٣) ت = ٣٤ كتاب الفتن ٥١ (٢٢٢٩) قال وهذا حديث حسن صحيح سمعت محمد بن اسماعيل يقول : سمعت علي بن المديني يقول : لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، هم أهل الحديث .

فالرسول صلى الله عليه وسلم كان يعلّم الصحابة أجميعين لا يميز بين رجل وامرأة . ولا سيد وعبد ولا عربي وأعجمي , فمدرسة النبوة وضعت المبدأ الذي ناضلت في سبيله كثير من الأمم والهيئات الدولية والمتمثل في ديمقراطية التعليم ، أي جعله حقاً من الحقوق التي يتمتع بها الفرد .

لم يحرم الرسول صلى الله عليه وسلم النساء من حق التعلم لما أتينه مطالبات بأن يخصص لهن عليه الصلاة والسلام جزءاً من وقته بل أكبر فيهن حبهن للعلم وعلمهن أمور دينهن الذي فيه عصمتهن من الذنوب وبفضله يكتسبن دراية تبيح لهن القيام بما كلفن به من وظائف تربوية واقتصادية واجتماعية .

فقد روى البخاري بسنده عن أبي سعيد الخدري قال : قال النساء للنبي صلى الله عليه وسلم ، غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يوماً من نفسك فوعدهن يوماً لقيهن فيه فوعظهن وأمرهن فكان فيما قال لهن : ما منكن امرأة تقدم ثلاثة من ولدها إلا كان لها حجاباً من النار ، فقالت امرأة : واثنين . فقال : واثنين[1] .

فالرسول صلى الله عليه وسلم ، علم النساء وغيرهن في هذا الحديث ثلاثة أمور :-

(أ) أن العلم حق للجميع وأن الإنسان يستطيع أن يطالب بهذا الحق بالطرق المشروعة .

(ب) أن الإنسان مطالب بأن يتجنب الشح المادي وأن يحمي نفسه منه . قال ابن حجر : قوله وأمرهن أي بالصدقة[2] .

(جـ) التحلي بالصبر الجميل .

فقد علم الرسول صلى الله عليه وسلم النساء ثواب من تحمى نفسها من

---

(١) خ . ٣ علم / ٣٦ - جنائز / ٦ - ٩١ - اعتصام / ٩ .

(٢) ابن حجر : فتح الباري ١ / ١٥٨ .

الشح المعنوي الذي قد يؤدي بصاحبه إلى الكفر بنعم الله تعالى والانهيار العصبي عند الشدائد ، وهو ما يعاني منه جانب من أفراد المجتمعات في العصر الحاضر الـذي ترك بعض أفـراده التمسك بحبل الله المتين ، ولم يفهموا الوظائف التي خصهم الله بها الفهم الصحيح . كما أنهم تاهوا وهم ينظرون إلى ما يتمتعون به من نعم ، فظنوا أن زوالها عنهم فيه من الظلم والقهر ما تنوء بحمله الجبال . وتخريج الإمام البخاري لهذا الحديث في كتاب الاعتصام دليل على هذا الجانب التربوي الذي جاء في الحوار الذي دار بين الرسول صلى الله عليه وسلم وإحدى نساء المسلمين والذي نشأ عن قوله عليه الصلاة والسلام : ما منكن تقدم ثلاثة من ولدها إلا كان لها حجاباً من النار . فقد تطلعت إحدى الصحابيات إلى فضل الله تعالى فسألت عن نصيب من قدمت اثنين من الأبناء ولعل منهن من ودت السؤال عن نصيب من قدمت واحداً فقط . وجاء الجواب النبوي مبيناً أن حكم الاثنين لا يختلف عن الثلاثة . جاء في رواية كتاب الاعتصام أن السائلة كررت سؤالهـا مرتين ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم أجابها بقوله « واثنين واثنين واثنين » واستنتج عياض وابن التين أن مفهوم العدد في الأرقام المذكورة ليس مراداً لذاته [1] إذ أن مفهوم الحديث هو بيان الجزاء الذي أعده الله تعالى لمن وقي نفسه من الشح .

قال تعالى : « ومن يوق شح نفسه فأولئك فأولئك هم المفلحون »[2] .

علّم الرسول صلى الله عليه وسلم ، المرأة هذه المعاني وغيرها ، كما فعل ذلك مع الرجال لأن الإسلام لا يميز بين الرجل والمرأة في هذا الحق . فهما يشتركان فيه مهما كانت مكانتهما الاجتماعية ، فالأمة لا تختلف في ذلك عن ربتها . ففي باب تعليم الرجل أمته وأهله أخرج البخاري عن أبي بردة عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « ثلاثة لهم أجران : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه ، ورجل كانت

---

(١) م . س ١٣ / ٩٤ .

(٢) الحشر : ٩ .

عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها وعلمها ، فأحسن تعليمه ثم اعتقها فتزوجها فله أجران[1] .

فالقدرة على التعلم عند الأمة لا تختلف عما هي عليه عند ربتها أو سيدها . فقد وهبها الله تعالى أجهزة لا تختلف عن أجهزتهم لتحصيل العلم الذي يرفع من درجة صاحبه . فالإسلام وان أقر العبودية الناتجة عن الضرورة الاقتصادية إلا أنه ألغى العبودية المتصلة بحق الحياة وحق العقيدة وحق التفكير والتعلم .

فالناس سواسية في هذه الحقوق ، وكلهم مطالبون بتعلم ما به يحفظ الدين ، فقد أخرج الأمام أحمد بسنده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « فيكم كتاب الله يتعلمه الأسود والأحمر والأبيض . تعلموه قبل أن يأتي زمان يتعلمه ناس ولا يجاوز تراقيهم ويقومونه كما يقوم السهم فيتعجلون أجره ولا يتأجلونه[2] .

فكل مسلم مطالب بأن يتعلم القرآن ويتدبره وينشره حتى يحول دون التعلم الابتر والفهم القاصر ، لا فرق في ذلك بين أسود وأحمر وأبيض ، ولا بين شيخ وشاب .

فالعلم حق مشاع قد ينبغ فيه الصغير قبل الكبير . وقد يصبح الأول أعرف من الثاني وأقدر على التبليغ والبيان . والأمثلة كثيرة في حياة الصحابة والتابعين . نكتفي بالإشارة إلى ما كان عليه حبر الأمة عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما . كما نشير إلى الحديث الطويل المتصل بقصة أصحاب الأخدود والذي وصف فيه الغلام الذى تعلم علم أحد الرهبان بأنه علم علماً ما علمه أحد[3] .

إن مبدأ شيوع العلم وكونه حقاً يتمتع به كافة الناس ، لا يستقيم إلا إذا كان العلم من الأمور المكتسبة وهذه هي الخاصية الثالثة للعلم .

---

(١) خ علم / ٣١ .

(٢) حم ٥ / ٢٣٨ من حديث أبي مالك سهل بن سعد الساعدي .

(٣) انظر سنن الترمذي ٤٨ تفسير القرآن / ٧٧ تفسير سورة البروج ، قال الترمذي بعد أن أورد الحديث المروي عن مهيب رضي الله عنه وهذا حديث حسن غريب .

(٣) العلم اكتساب :

إن المتدبر في التوجيهات الإسلامسة المتصلة بالعلم يلاحظ أن العلم البشري لا يكون إلا عن طريق الكسب ، فلا وجود لعلم يأتي عن طريق الوراثة ولا عن طريق النور الذي يقذف في القلب . فالعلم عملية اكتسابية لا تكون إلا باستخدام الأجهزة التي خلقها الله في الإنسان وطلب منه أن يستخدمها إن هو أراد أن يخرج من الجهل إلى العلم والأدلة على ذلك كثيرة منها :

(أ) أن الأنبياء رضي الله عنهم كانوا يستخدمون الوسائل والأجهزة البشرية ، للحصول على العلم الذي لا ينزل عليهم وحياً ، فالوحي قد دعاهم إلى ذلك ، فموسى عليه السلام ، قام خطيباً في بني إسرائيل ، فسئل أي الناس أعلم ، فقال : أنا أعلم ، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه . فأوحى الله إليه أن عبداً من عبادي بمجمع البحرين هو أعلم منك . قال : يارب وكيف به ؟ فقيل له احمل حوتاً في مكتل ، فإذا فقدته فهو ثم . فانطلق وانطلق بفتاه يوشع ابن نون ، وحملا حوتاً في مكتل حتى كانا عند الصخرة وضعا رأسيهما وناما . فانسل الحوت من المكتل فاتخذ سبيله في البحر سرباً . وكان لموسى وفتاه عجباً . فانطلقاً بقية ليلتهما ويومهما . فلما أصبح قال موسى لفتاة آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً . ولم يجد موسى مسا من النصب حتى جاوز المكان الذى أمر به . فقال له فتاه ، أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت ، قال موسى ذلك ما كنا نبغي . فارتدا على آثارهما قصصاً . فلما انتهيا إلى الصخرة إذا برجل مسجى بثوب أو قال تسجى بثوبه فسلم موسى فقال الخضر وأني بأرضك السلام ؟ فقال أنا موسى . فقال موسى بني إسرائيل ؟ قال : نعم ، قال : هل اتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً ؟ قال : إنك لن تستطيع معي صبراً . ياموسى إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت . وأنت على علم علمكه لا أعلمه قال ستجدني إن شاء الله صابراً ، ولا أعصى لك أمراً (الحديث)[1] .

---

(١) خ - ٣ - علم / ٤٤ ج ١ .

فهذا الحديث الطويل الذي له أصل في القرآن الكريم يبين :

أولاً - أنه لا يسمح للإنسان مطلقاً أن يدعى أنه أعلم الناس وأنه وصل إلى درجة من العلم لم يصل إليها غيره من البشر .

ثانياً : أن الانبياء إلى جانب الوحي المنزل عليهم والذي يخرج عن العلم المكتسب يتمتعون بما يتمتع به سائر البشر من قوى تمكنهم من تحصيل العلم وأنهم مدعوون أحياناً إلى استخدام هذه القوى ، وبذل الجهد للحصول على علوم لا تنزل عليهم تنزيلاً .

فموسى عليه السلام قد لا قى في رحلته من النصب ما لاقى واستخدم من الوسائل ما استخدم إلى أن وصل إلى العبد الصالح الذى اشترط عليه شروطاً تتطلب صبراً جميلاً وقدرة على مقاومة ما ركب في النفس من ميل إلى التسرع في معرفة الأسباب والمسببات .

والعبد الصالح كان في حاجة إلى السؤال ليعلم أن الذي يخاطبه هو موسى عليه السلام . قال ابن حجر وفيه (الحديث) دليل على أن الأنبياء ومن دونهم لا يعلمون من الغيب إلا ما علمهم الله إذا لو كان الخضر يعلم كل غيب لعرف موسى قبل أن يسأله[1] .

(ب) جاء في الحديث أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، قال : « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين . وإنما أنا قاسم والله يعطي ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله[2] .

فقوله إنما أنا قاسم يفيد أنه يعلم الناس دون أن يميز بين هذا وذلك . أما قوله «والله يعطي» فيشير إلى أن ما يحصل عليه هذا الطالب يختلف عمايحصل إليه ذلك . وهذا مرده إلى أن الله تعالى أعطانا ما بفضله نحصل على العلم ، ولكن طريقة استخدامنا لما أعطانا الله تعالى تختلف كما تختلف ظروفنا وحالاتنا

(١) فتح الباري ١/١٧٧ .
(٢) خ ٣ علم / ١٣ .

النفسية . فعملية التعلم إذن تستدعي أمرين : البذل والسعي مع طلب التوفيق من الله تعالى وهذا ما أشار إليه ابن حجر في شرحه عندما بين أن في الحديث إثبات الخير لمن تفقه في دين الله ، وأن ذلك لا يكون بالاكتساب فقط بل لمن يفتح الله عليه به[1] .

فلا خلاف بين ما قاله ابن حجر وبين قولنا إن العلم لا يكون إلا عن طريق الكسب ، فإننا نعلم أن هذا الأخير شرط ضروري في كل عمل يقوم به الإنسان ولكنه ليس بكاف فهو في حاجة إلى توفيق الله وفضله .

(جـ) جاء في تعليق للبخاري أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، قال : ومن سلك طريقاً يطلب فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة[2] .

فهذا يشير إلى أن العلم يفرض على صاحبه أن يتنقل من مكان إلى مكان آخر ، وأن يرحل من بلد إلى بلد آخر ، إذا لزم الأمر ، وذلك للأخذ عن العلماء . فالعلم لا يكون إلا بالتعلم أي بإرادة إنسانية محاطة بالعناية الآلهية . فقد روى عن عبد الله بن مسعود أنه كان يقول : فعليكم بهذا القرآن فإنه مأدبة الله . فمن استطاع منكم أن يأخذ من مأدبة الله فليفعل فإنما العلم بالتعلم[3] .

(د) لم يصدر عن الصحابة رضي الله عنهم ما يشير إلى أنهم تعلموا دون أن يجلسوا في مجالس العلم . فعمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يتناوب هو وجار له من الأنصار في النزول إلى المجلس النبوي للتعلم . وكثير من الأحاديث ذكرت أن بعض الصحابة كان يجلس لدى البعض الآخر ليتعلم منه ، ففي الحديث الطويل الذي رواه عمر بن الخطاب أن نساء المهاجرين كن يتعلمن من نساء الأنصار[4] .

---

(١) ابن حجر : الفتح ١ / ١٣٤ .

(٢) خ ٣ علم / ١٠ ، وهذا التعليق جزء من حديث طويل خرجه أبو داود في كتاب العلم (٣٦٤١) .

(٣) الحافظ الهيثمي : مجمع الزوائد ١/١٢٨ - ١٢٩ قال : رواه البزار في حديث طويل ورجاله موثقون .

(٤) انظر الحديث في سنن الترمذي ٤٨ تفسير القرآن / ٦٦ (٣٣١٨) .

والمتدبر في الحديث يستنتج أن المتعلمات كن يمارسن وسائل التعلم . فهن يسألن ويراجعن ويبذلن ما في وسعهن للخروج من الجهل والتمتع بنعمة العلم ، هذه النعمة التي لا تختلف عن نعم الله تعالى في ضرورة كسبها والحصول عليها عن طريق الجهد البشري الذي هو في حاجة إلى رحمة الله تعالى وفضله ولطفه بعباده .

إن استمرارية العلم وعمومه وكسبه تولدت عنها قضايا تتصل بالدعوة إلى نشره والتحذير من كتمانه ، وبمطالبة أهله بأن يبذلوا ما في وسعهم للمحافظة عليه وصيانته .

وحتى يتيسر هذا وذاك ، فلا بد من اتباع الطرق التعليمية الناجحة التي تساعد على نشر العلم ونمائه وتطوره .

الطـرق التعليميـة

منذ القديم وطريقة التعليم تحتل مكانة مهمة في كل عملية تهدف إلى نقل المعلومـات وتـزكيتهـا واستخـدامها . فقد اهتم بها أصحاب المدارس التربوية والفلسفية . فالمثاليون[1] لهم طريقتهم في التربية ولهم أساليبهم وكذلك الشأن لمن وصفوا بالواقعية[2] ولمن عرفوا بالبراجمتيه[3] وغير هؤلاء وأولئك منتشرة طرقهم في كتب تاريخ التربية وفلسفتها .

ومما يلفت النظر أن الذين تحدثوا عن الطرق التربوية الإسلامية غاب عنهم أن يعودوا إلى الأحاديث النبوية وأن يستقرئوها ويحللوها ويستمدوا منها الأساليب والـوسـائل التي أتّبعها الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يعلم جيل الصحابة ليخـرجهم من ظلام الأمية إلى نور العلم وحلاوة الإيمان . غاب عن مؤرخي التربية الإسلامية أن السنة النبوية وهي التي نزّلت نصوص القرآن الكريم إلى الواقع العملي قد سلكت طريقة تربوية لها أسسها التي يميزها عن غيرها من الطرق .

أسس طريقة الرسول صلى الله عليه وسلم التعليمية :

إلى جانب اتصافها بكل ما يميز الرسول صلى الله عليه وسلم عن سائر البشر

---

(١) ترجع أصول الفلسفة المثالية إلى الهند القديمة وإلى أفلاطون ، ومن المنتسبين إليها نذكر بيركلي وفخته وهيوم وهيجل وكانت وشوبنهاور وتقوم هذه الفلسفة على أن الروح الإنسانية هي أهم عنصر في الحياة . وإن الواقع روحي في طبيعته وليس فيزيائياً وأنه من صنع العقل . وتؤكد المثالية على وجوب توفير الفرصة للطالب حتى يفكر ليطبق معايير الحكم الخلقي على المواقف .

(٢) الواقعية : هي المدرسة الفلسفية التي جعلت همها دراسة الواقع والانطلاق منه ، والتأكيد على الـوجـود المـادي ، والواقعية اتجاهات متعددة : الاتجاه الواقعي الديني المنسوب إلى توماس الأكـويني والاتجـاه الـواقعي الكلاسيكي والاتجاه الواقعي الحسي الذي يتزعمه بيكون ولوك وستيوارت . ومن أهم أهداف التعليم عندهم تمكين الإنسان من السيطرة على البيئة الطبيعية . أما أهم وسيلة للتربية في نظرهم فهي الحواس المصدر الضروري لكل معرفة .

(٣) من أشهـر فلاسفة البراجمتية ويليم جيمس وجون ديوي ، وتعتبر البراجماتية فلسفة عملية منفعية وتؤمن بالتغير المستمر وبنسبية القيم والأخلاق .

من وحي وعصمة وغيرهما من صفات النبوة ، فإن في طريقته عليه الصلاة والسلام جوانب بشرية تظهر تكامل الجانبين النبوي والبشري في شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم . فطريقته التعليمية تعتمد على أسس نذكر منها :

١ - الاستدلال العقلي :

روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنّه قال : إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث[١] .

ذهب بعضهم إلى أن الظن الوارد في الحديث هو التهمة التي لا سبب لها واستدلوا على ذلك بأن آخره جاء لينهي عن التجسس والتحسس وما شابههما . وأكدوا ما ذهبوا إليه بقوله تعالى : ياأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إنّ بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً »[٢] .

وذهب البعض الآخر إلى أن المقصود بالظن في الحديث هو مالا يصل إلى اليقين لذلك حرموا الاجتهاد .

إلا أن اغلب الشراح رفضوا التأويل المتقدم وقالوا إن المقصود هو الظن المجرد عن الدليل ، أما ما كان مبنياً على أصل أو على دليل فهو ظن شرعي .

وهذا التأويل الأخير هو الذي يطمئن إليه الباحث لأنه يذم سلوكاً يحرم العقل من القيام بدوره في تحصيل العلم إذ يخضعه لمؤثرات شكلية مثل الحسد والتجسس والتحسس تبعده عن الاستدلال وتمكن الشياطين من ان تجتاله وتحجب عنه الحقيقة .

إن الاستدلال العقلي يتطلب من الإنسان أن يكون قوي الشخصية ، وأن يهيء نفسه للعلم وأن يبتعد عن التقليد السلبي ، فالقرآن الكريم نقد الذين يقولون « إنّا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون »[٣] .

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري في الكتب التالية - النكاح / ٤٥ ح ٢ - الفرائض / ٢- الأدب ٥٧ - ٥٨ .

(٢) الحجرات ١٢ .

(٣) الزخرف ٢٣ .

والـرسـول صلى الله عليه وسلم ، خاطب المسلمـين ، فقال : لا تكونوا إمعـة ، تقـولون إن أحسن الناس أحساناً ، وإن ظلموا ظلمنا ، ولكن وطنوا أنفسكم ، إن أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن اساؤوا فلا تظلموا »[1] .

إن حمل النفس على معرفة الظلم والاحسان والتفريق بينهما يستدعي إعمال العقل وإقامة الدليل والبرهان ، فالتقليد السلبي والاحتماء بما يفعله الآخرون يطمسـان وظيفة العقل ، ويوقعان الإنسان في الخطأ ويحجبان النظر الفاحص والتـأمـل الهـادف فيصبح من يمارسهما عاجزاً عن النظر في نفسه وفي ملكوت السماوات والأرض فيصاب بالجهل حتى وإن كان قارئاً كاتباً .

وهكذا يتضح أن طريقة الرسول صلى الله عليه وسلم في التعليم تدعو إلى الاستدلال العقلي وتسليط النظر والفكر على ما يراد بلوغه وترسيخه والمحافظة عليه من علوم . ولكن هذا الاستدلال قد يحتاج إلى عمليات تسبقه أو تصاحبه ومنها التجربة .

التجربة :

يمر الإنسان في الحياة بتجارب متعددة . فإذا ما استقرأها واتستثمرها فإنها تساعده على أن يتعلم . لذلك يقال فلان حنكته التجارب . وذهب بعض علماء التربية والتعليم إلى أن العلم لا يكتسب ، وأن المعرفة لا تنمو إلا بفضل التجارب المتنوعة .

والمتتبع أخبار الرسول صلى الله عليه وسلمن وأقواله يلاحظ مكانة التجربة في سياسته التعليمية ، فقد روي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا حليم إلا ذو عثرة ولا حكيم إلا ذو تجربة »[2] . وأخرج الإمام البخاري الجزء الثاني من الحديث موقوفاً على معاوية ابن أبي سيفان ضمن عنوان باب من أبواب كتاب الأدب ، قال : لا يلدغ المؤمن

---

(١) ت ٢٨ البر والصلة / ٢٣ (٢٠٠٧) وقال حديث حسن غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه .

(٢) ت ٢٨ البر والاصلة / ٨٦ (٢٠٣٣) وقال حسن غريب .

من جحر مرتين ، وقال معاوية لا حكيم إلا ذو تجربة . ثم خرج حديث أبي هريرة عن الرسول صلى الله عليه وسلك وجاء فيه أنه قال : « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين »[1] .

فهذه النصوص تبين :

(أ) أن التجربة تقي المؤمن من أن يلدغ من حجر مرتين فهي تكسبه مناعة تحميه من الوقوع في الخطأ الواحد مرتين وتجعله يستنتج الأحكام من التجارب ثم يعممها على المسائل المتماثلة .

(ب) يصبح الإنسان بفضل التجارب حكيماً لأن ما تحصل عليه من علوم لم يكن عن تقليد سلبي . ولا عن طريق حشو الفكر بالمعلومات أو تجميع الكتب والكراريس ، ولكن بأخذ علوم المتقدمين ونقدها وإدراك مقاصدها والانطلاق منهعا لمتابعة ما شرعوا فيه وتطويره وحمايته من أن يصبح قوالب جامدة أو نظريات ما ورائية ، فنهاية المتقدم بداية للمتأخر .

(جـ) لا مانع من أن يتعثر الإنسان في تجاربه فيخطيء تارة ويصل إلى طريق مسدود أخرى ، ولكن العالم هو الذي يتغلب على العثرات ويتعلم منها ، ومن شروط ذلك ألا يتشبث بماظنه حقيقه إذا أظهرت التجربة خلافه .

فقد روى الأمام مسلم عن موسى بن طلحة عن أبيه قال : مررت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بقوم على رؤوس النخل ، فقال : « ما يصنع هؤلاء ؟ فقالوا : يلحقونه ، يجعلون الذكر في الأنثى فتلقح ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما أظن يغني ذلك شيئاً » قال فأخبروا بذلك فتركوه . فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال : إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه ، فإني إنما ظننت ظناً فلا تؤاخذوني الظنّ . ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به ، فإني لن أكذب على الله عز وجل[2] .

ثم ذكر مسلم روايتين لهذا الحديث جاءت الأولى عن رافع بن خديج

---

(١) خ - ٧٨ - الأدب / ٨٣ .

(٢) م ٤٣ الفضائل / ١٣٩ (٢٣٦١) .

وزادت على المتقدمة أن النخل نفضت أو نقصت وأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لما ذكروا له ذلك : إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر[٢] .

أما الثانية فراوها من الصحابة أنس وعائشة رضي الله عنهما وجاء فيها أن النبي صلى الله عليه وسلم ، مر بقوم يلحقون فقال « لو لم تفعلوا لصلح » . قال فخرج شيصا فمر بهم فقال : ما لنخلكم قالوا : قلت كذا وكذا . قال أنتم أعلم بأمر دنياكم[٣] .

فهذا الحديث برواياته المتقدمة يبين أن الإيمان بالنص المنزل وحياً متلوا أو مروياً لا يتوقف على التجربة ولا على غيرها من الوسائل البشرية . لذلك قال عليه الصلاة والسلام : إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به . أي صدقوا به دون أن تجعلوا التجربة أو غيرها يتحكم في صحته . ولكن لا مانع من أن تنطلقوا من هذا النص لتقوموا ببعض التجارب التي تعين على فهمه والوقوف بقدر الطاقة الإنسانية ، على مقاصد الشرع منه ، أو استثماره الاستثمار الحسن . ولهذا السبب يمكن للمسلم أن يخضع ما جاء في الآيات أو الأحاديث الصحيحة للتجارب حتى يفهمها الفهم الصحيح ، أو يستنبط ما أشارت إليه من علم ومعرفة . وإلى جانب ذلك فقد دل الحديث على أن الظن الشرعي وهو الذي يكون مع الدليل والبرهان ، قد يزول بفضل النص النقلي ، وقد يتضاءل بواسطة الدليل العقلي أو التجربة ، فالرسول صلى الله عليه وسلم ظن ظناً مشروعاً قد يكون منطلقه قوله تعالى : « وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين »[١] واجتهد اجتهاداً يعلم أنه محمي بالوحي ،

---

(٢) م . س (٢٣٦٢) .

(٣) م . س (٢٣٦٣) .

(١) الحجر ٢٢ قال الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور : ومعنى الالقاح أن الرياح تلقح السحاب بالماء بتوجيه عمل الحرارة والبرودة متعاقبين فينشأ عن ذلك البخار . . وإنما تلقح الشجر ذي الثمرة . . ثم قال ومن بلاغة الآية إيراد هذا الوصف لا فادة كلا العملين اللذين تعملهما الرياح (التحرير والتنوير ١٤ / ٣٨) .

أن كان بالأمكان أن ينزل عليه ما يعدل به اجتهاده هذا . ولكن حكمة الله تعالى اقتضت أن تترك ذلك الاصلاح للتجربة . فالصحابة رضي الله عنهم قد جربوا تأبير النخل وعدمه لما قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم « لعلكم لو لم تفعلوا كان خيراً » وأدركوا أن الخير مع التأبير . وأدرك الرسول صلى الله عليه وسلم ، ذلك وتعلمه من التجربة . فقال لهم : « إذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر» . أي إذا أمرتكم بشيء لم ينزل فيه وحي فإن التجربة يمكن استخدامها واللجوء إليها لبيان مطابقته للواقع .

وهـذكـا يتضـح أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا ينطلق عن الهوى . فالوحي يعصمه العصمة المطلقة من الخطأ في تبليغ ما نزل عليه وحياً متلوا أو مروياً ، وفي تشريع الأحكام ، أما في العلم البشري فإنه عليه الصلاة والسلام معصـوم من الخطأ بمعنى أنه لا يستمر عليه . وعدم الاستمرار ذلك مصدره الوحي تارة والتجربة والمشورة تارة أخرى .

والتجربة التي اتّبعها الرسول صلى الله عليه وسلم في تعليمه تعتمد على ما يمـر بالإنسان من أحداث . كما تنطلق من مشاهداته وحواسه فتطلب منه أن يجمع المعلومات ويتأمل فيها ويستقرئها الاستقراء الموضوعي .

فقد جاء رجل من بني فزارة إلى الرسول صليى الله عليه وسلم ، فقال : إن آمرأتي ولدت غلاماً أسود وإني انكرته . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم هل لك من إبل ؟ قال نعم . قال : فما ألوانها ؟ قال حمر قال هل فيها من أورق ؟ قال إن فيها لورقاً . قال فأنّى أتاها ذلك ؟ قال : عسى أن يكون نزعه عرق . قال : وهذا عسى أن يكون نزعة عرق[1] .

فقد استخدم الرسول صلى الله عليه وسلم مع هذا الرجل طريقة حوارية تجعله يعود إلى التجربة التي يعيشها يومياً لينظر ويتأمل ويدقق ويقيس الأشياء بنظائرها ، فيصل بذلك إلى الحكم الصحيح والعلم الذي يطمئن إليه القلب

(١) م . ١٩ اللعبان / ١٨ (١٥٠) .

فيزول عنه شك جعله ينكر أن تلد آمرأته غلاماً مالت بشرته إلى السواد .

لم يحدث الرسول صلى الله عليه وسلم الرجل عن القوانين الوراثية ، أو عن قدرة الله في آخراج الأسود من الأبيض ، ولكنه جعله يستخلص من ملاحظاته الخطأ الذي وقع فيه . فبفضل الملاحظة والاستنتاج السليم عادت الطمأنينة إلى قلب الرجل ونزع ما في نفسه من ظن لا دليل عليه .

وإذا كان جمع المعلومات وملاحظتها واستقراؤها من الأمور التي احتلت مكانة مهمة في طريقة الرسول صلى الله عتليه وسلم التعليمية فإن حاستي السمع والبصر قد وقع التركيز عليهما لأنهما من أهم الوسائل التي تحقق ذلك . فقد جاء في بعض الأحاديث أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يكرر ما يصدر عنه ثلاث مرات . فقد عقد البخاري في كتاب العلم باباً بعنوان من أعاد الحديث ثلاثاً ليفهم عنه . قال ألا وقول الزور . فمازال يكررها . ثم ذكر حديث ابن عمر معلقاً وجاء فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : هل بلغت ثلاثاً ، وبعد ذلك خرج ثلاثة آحاديث متصلة السند ذكر أولها أن النبي صلى الله عليه وسلم ، كان إذا سلم . سلم ثلاثاً وإذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً ، وجاء الحديث الثاني مطابقاً للأول إلا أنه أضاف أن هدف هذا التكرار هو التعليم . أما الحديث الثالث فرواه عبد الله بن عمر وجاء فيه : تخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر سافرناه فأدركنا وقد أرهقتنا الصلاة صلاة العصر . ونحن نتوضأ فجعلنا نمسح على أرجلنا فنادي بأعلى صوته ويل للأعقاب من النار مرتين أو ثلاثاً[1] .

فما جاء في أحاديث الباب يبين :

(أ) أن التكرار الذي مارسه الرسول صلى الله عليه وسلم ، تكرار هادف غايته الفهم .

فأول مراحل هذا الأخير تتمثل في السماع السليم الذي بواسطته تصل المعلومات إلى الفكر ، لذلك نجد القرآن الكريم كلما قرن بين حاستي السمع والبصر بدأ بالأول .

---

(١) خ ٣ علم / ٣٠ ح ٣ .

وأثبتت الطرق التربوية الحديثة دور السمع في التعليم ، فصنعت الآلات التي تزيد في قدرة هذه الحاسة على استيعاب ما يلقي عليها وأقامت مخابر اللغات التي تخضع المتعلمين لما يسمى « بالحمام الصوتي » الذي يتمكن بفضله المتعلمون من النطق السليم نتيجة للسماع الجيد . والمعلمون في المدارس مطالبون في طرق التعليم الحديثة ، بأن يكرروا ما ينطقون به على مسامع طلبتهم حتى تعم الفائدة وترسخ المعلومات .

(ب) كان الرسول صلى الله عليه وسلم يكرر كلامه لتأكيد بعض الأحكام الشرعية والتنبية إليها فمناداته عليه الصلاة والسلام بأعلى صوته أن ويل للأعقاب من النار تأكيد على أن غسل الأرجل في الوضوء من الفرائض ، فلا يمكن التساهل فيه لسبب غير شرعي .

هذه هي مكانة السمع في طريقة الرسول صلى الله عليه وسلم التعليمية وتليها مكانة البصر ، فقد كان عليه الصلاة والسلام يستعين بالإشارة لتوضيح بعض المعلومات . . ويختار المكان المرتفع ليعلم ويرشد ويهدي . . والهدف من ذلك هو مساعدة المتعلمين على مشاهدة حركاته وإشاراته ومايرتسم على وجهه عليه الصلاة والسلام من ملامح . . ففي باب من أجاب الفتيا بإشارة اليد والرأس خرج البخاري ثلاثة أحاديث تضمن آثنان منها إشارات .

فقد روى ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل في حجته ، فقال : ذبحت قبل أن أرمي فأومأ بيده ، قال : ولا حرج قال : حلقت قبل أن أذبح ، فأومأ بيده ، ولا حرج[1] .

وروى أبو هريرة عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : يقبض العلم ويظهر الجهل والفتن ، ويكثر الهرج . قيل يارسول الله وما الهرج ؟ قال هكذا بيده ، فحرفها كأنه يريد القتل[2] .

لقد صدر الحديث الأول في حجة الوداع ، وقد اجتمع فيها جمع كبير من

---

(١) خ ٣ علم / ٢٤ ح ١ .

(٢) م . س ح ٢ .

الصحابة ، رضي الله عنهم ، يتعذر تبليغهم العلم والجواب عن أسئلتهم عن طريق السمع فقط . فلما سئل عليه الصلاة والسلام استعان بالإشارة اليدوية ليجيب بطريقة مرئية تستطيع العين أن تبلغ محتواها إلى العقل فيفهم مدلولها . ولا تترك مجالاً للشك في بعض النفوس . فلا يظن أحد أنه سمع مقطعاً من جواب الرسول صلى الله عليه وسلم دون الآخرين الذين لبعدهم فاتهم ماسمع . فالإشارة في مثل هذا الظرف أسلم للتبليغ ، والبصر هنا أقدر من السمع على الاستيعاب .

أما الحديث الثاني فصدر في مجلس من مجالسه عليه الصلاة والسلام فالسمع الجيد فيه ممكن ولكن الإشارة أبلغ ومدلولها أرسخ ، فالشرح اللفظي والتفصيل البياني لتعريف الهرج والمرج قد لا يؤثران في النفوس تأثير الإشارة المعبرة التي لن ينساها من شاهدها ولن تغيب عن الأبصار مهما تباينت المواقف .

وهكذا تتضح مكانة السمع والبصر في طريقة الرسول صلى الله عليه وسلم التعليمية التي تقوم على التجربة وتستعين بالحواس وتطلب من الإنسان أذ يكون أميناً في حصوله على العلم وفي نقله وفي استثماره بطريقة شرعية .

الأمانة العلمية :

لا خلاف بين العلماء في أن العلم لا يبني ولا يتقدم ولا يصل إلى النتائج المرجوة إلا إذا سلم من الأخطاء بصفة عامة ، والمتعمد منها بصفة خاصة . لذلك كان مبدأ الأمانة العلمية من القواعد الأساسية التي يحافظ عليها العلماء . والإسلام سباق إلى هذا المبدأ . فقد دعت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية إلى توخي الصدق والأمانة وحذرت من الكذب وبينت أنه يؤدي إلى النار وأن صاحبه إذا مارسه وزاوله يكتب عند الله كذاباً فقد روى عبد الله بن مسعود عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : « عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور . ، وإن

الفجور يهدي إلى النار ، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً[1] .

وإلى جانب التحذير من الكذب بصفة عامة ، شدد الرسول صلى الله عليه وسلم عقاب من تعمد الكذب عليه ذلك أن هذا النوع من الكذب يمس مصدر العلم فيحرم العقل من الاستقراء السليم ومن الفهم المطابق لمقاصد الشريعة ولسنن الله في الكـون ، إنه كذب يحول العلم إلى جهل والهدى إلى ضلالة ، لذلك أكدت الأحاديث على أنه يختلف عن الكذب الذي لا صلة له بمصدر العلم . فقـد روى المغيرة بن شعبة قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقـول : إن كذباً علي ليس ككذب على أحد . من كذب على معتمداً فليتبوأ مقعدة من النار[2] .

وحتى يلزمـوا ناقـل العلم بنسبتـه إلى صاحبـه وبتمرين نفسه على الدقة والأمانة ، استخدم علماء المسلمين الإسناد الذي امتازت به أمة الرسول صلى الله عليه وسلم على سائـر الأمم ، ولا نريد في هذا البحث مناقشة الشبهات التي أثيرت حول ظهور الإسناد وأهدافه وما قدمه للعلوم من خدمات ، ولكنا نريد أن نخلص إلى النتائج التالية :

(أ) نشأ الإسناد في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم .

(ب) استخدمه بعض الصحابة ولذلك وجدنا بعض الأحاديث يرويها صحابي عن آخر كما وجدنا علماً من علوم الحديث يهتم بمراسيل الصحابة رضي الله عنهم .

(جـ) أصبح الإسناد بعد ظهور الفتنة الكبرى شرطاً من شروط نقل الحديث ولم يكن بالشرط الوحيد ولا الكافي .

(د)أسهم الإسناد في مقاومة الكذابين على الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى العلماء ، فأخذ به غير المحدثين .

---

(١) م ، ٤٥ البر والصلة والآداب / ١٠٥ .

(٢) خ ٢٣ الجنائز / ٣٤ .

وسائل الرسول صلى الله عليه وسلم التعليمية :

لم تكن أسس سياسة الرسول صلى الله عليه وسلم التعليمية مجرد نظريات أو تصورات ذهنية ولكنها طبقت عملياً وذلك بواسطة وسائل متنوعة نذكر منها :

(أ) الحـــوار :

مكن الرسول صلى الله عليه وسلم ، الصحابة رضي الله عنهم من التعبير عما يجول بذهنهم حتى عند تلقي الوحي .

فقد أخبر زيد بن ثابت أن النبي صلى الله عليه وسلم أملي عليه : لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله . فجاءه ابن أم مكتوم وهو يملها علي . قال يارسول الله ، والله لو أستطيع الجهاد معك لجاهدت . وكان أعمى . فأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم وفخذه على فخذي فثقلت علي حتى خفت أن ترض فخذي ، ثم سري عنه فأنزل الله « غير أولي الضرر »[1] .

فهـذا من الجدول المقبول ، ذلك أن عبد الله ابن أم مكتوم لم يهدف إلى معارضة النص المنزل أو التشكيك فيه أو الاحتجاج عليه . وإنما كان يود أن يعلم عمـلاً يستـطيع القيام به مكـان الجهـاد ويناسب قدراته الجسمية فيؤجر أجر المجاهدين ، ويؤكد هذا المعنى ما جاء في رواية البراء بن عازب من أن عبد الله ابن أم مكتوم جاء « فشكا ضرارته »[2] وما جاء في رواية غير البخاري عن قبيصة من أنه قال : إني أحب الجهاد في سبيل الله ولكن بي من الزمانة ما ترى : ذهب بصري[3] .

ولم يجب الرسول صلى الله عليه وسلم ، عبد الله بن أم مكتوم بل ترقب الوحي الذي نزل ليستثني أولي الضرر من « القاعدين من المؤمنين » استثناء فيه « عدول عن الاعتماد على القرينة إلى التصريح باللفظ »[4] .

---

(١) خ - ٦٥ تفسير القرآن الكريم ، سورة النساء / ١٩ - ح ١ .
(٢) انظر (م . س) ح٢ .
(٣) ابن حجر - فتح الباري ٨ / ٢٠٩ .
(٤) التحرير والتنوير ٥ / ١٧٠ .

والمتتبع للأحاديث النبوية يلاحظ أمثلة للحوار الذي كان يدور بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين الصحابة أو بينه وبين من أتوه مستفسرين عن الدين ، أو بينه وبين خصوم الدين .

فهذا أعرابي يدخل على الرسول صلى الله عليه وسلم ويقول أيكم محمد ؟ ثم يحاور الرسول صلى الله عليه وسلم ليتأكد من أنه عليه الصلاة والسلام بعث للناس أجمعين ، وأن الله أمر العباد بأن يصلوا خمس صلوات في اليوم والليلة وأن يصوموا شهر رمضان وأن يخرجوا الزكاة [1] .

وهـذا فتى من قريش يدخل على الرسول صلى الله عليه وسلم في مجلسه ويقول : يارسول الله أئذن لي في الزنا . فأقبل القوم عليه وزجروه فقالوا : مه !! فقـال : أدنه فدنا منه قريباً ، فقال : اتحبه لأمك ؟ قال لا والله ، جعلني الله فداك . قال : ولا الناس يحبونه لأمهاتهم . قال : أفتحبه لأبنتك ؟ قال : لا والله يارسول الله جعلني الله فداك ، قال ولا الناس يحبونه لبناتهم . ثم ذكر له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اخته وعمته وخالته وفي كل ذلك يقول الفتى مقالته : لا والله جعلني الله فداك [2] .

لقد حاور الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الشاب وجعله يقف على الخطأ الذي وقع فيه ويدرك أن الزنا فيه هضم لجانب الفرد والمجتمع ، وأن الله تعالى حرمه لحماية الجماعات والأفراد . توصل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ذلك بطريقة حوارية ما كان الحاضرون يتبعونها ، فلو ترك الأمر لهم لاستخدموا الزجر والعقاب . ولكن الهداية النبوية جعلتهم يدركون أنّ العلم والتربية يقومان على أسس منها بعث الطمأنينة في نفس المتعلم ثم محاورته . فقد شاهدوا الرسول صلى الله عليه وسلم يدني السائل إليه ويقربه منه وذلك حتى يرتاح إليه فيشعر بأن معلمه يريد به خيراً ولا يقيم بينه وبينه الحواجز والعوائق .

قال عليه الصلاة والسلام للشاب : أدنه . ثم حاوره .

---

(١) انظر الحديث في صحيح البخاري ، كتاب العلم / ٦ ح ٢ .

(٢) الهيثمي ، مجمع الزوائد ١ / ١٢٩ قال رواه أحمد والطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح .

ولم يخص الرسول صلى الله عليه وسلم بالحوار المسلمين فقط بل اتبعه مع أعداء الإسلام كاليهود . وحواره مع أهل خيبر وغيرهم منتشر في كتب الصحاح ودواوين السنة .

السـؤال :

جاءت في كثير من الأحاديث أسئلة تنوعت مصادرها والذي يهمنا منها هو الذي كان مصدره الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإذا استقرأنا جانباً من هذا النوع اتضح لنا أن السؤال النبوي استخدم لثلاثة أهداف .

الأول «التنشيط» : فالرسول صلى الله عليه وسلم ، كان يستخدم الوسائل التي تجعل المتعلم مقبلاً على الدرس ساعياً إلى المعرفة ، قال عبد الله ابن مسعود : لمن طلب منه أن يعلمهم كل يوم : « وأما أنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أملكم وإني أتخولكم بالموعظة كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتخولنا بها مخافة السآمة علينا[٢] .

وإلى جانب توزيع أو قات العلم توزيعاً محكماً يبعد عن المتعلمين السآمة ، كان عليه الصلاة والسلام يلقي عليهم أسئلة تنشط أذهانهم وتفتح أبصارهم وتعين على ترسيخ المعلومات في عقولهم . فالجواب عن هذه الأسئلة . هو في الواقع واضح ومن شدة وضوحه تشرئب الأعناق إلى صاحبه ظانه أنه سيأتيهم بأمر جديد لم يتعودوا عليه ولم يتقدم لهم . وإذا بالجواب يتكون من جزئين : أحدهما معلومة لا تختلف عما جال بذهن المستمعين ولما هو معلوم لديهم ، والآخر حكم شرعي هيئت له الظروف ليعلق بالأذهان . فهو يشمل أسساً بني عليها الدين وقامت عليها الشريعة . روى أبو بكرة عن أبيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قعد على بعيره وأمسك إنسان بخطامه أو بزمامه ثم قال أي يوم هذا ؟ فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه سوى اسمه . قال أليس يوم النحر ؟ قلنا : بلى . قال : فأي شهر هذا ؟ فسكتنا حتى ظننتا أنه سيسميه بغير اسمه . فقال : أليس بذي

---

(١) خ ٣ العلم / ١٢ .

الحجة ؟ قلنا : بلى . قال فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا . ليبلغ الشاهد الغائب . فإن الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى له منه[1] .

فالأسئلة التي ألقاها الرسول صلى الله عليه وسلم في الجمع الغفير من الصحابة الذين حضروا حجة الوداع لم تكن للمراقبة أو للتدرج بهم إلى استنباط قاعدة من القواعد ، بل كانت كمنبه ومهيء تجعل المتعلمين متشوقين منصتين يترقبون ما سيقال لهم وما سيلقى على مسامعهم من توجيهات . فالمكان البارز الذي استقر به الرسول صلى الله عليه وسلم والأسئلة المتنوعة والمهل الزمنية التي فصلت بين الأسئلة أمور جعلت الحاضرين آذاناً صاغية وعقولاً متفتحة ومدارك مهيأة لتعي أن دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم مصانة لا يجوز لأحد أن يعتدي عليها أو ينالها بسوء . فهذه العناصر التي حماها الدين وأحاطها برعايته هي الدعائم التي تقوم عليها كل حياة اجتماعية وهي الأسس لكل تقدم علمي وحضاري . فلا وجود لمجتمع بدون أفراد ، ولا مكانة لتقدم بدون مال ولا طمأنينة لعالم أو لغيره بدون كرامة وحفظ للعرض . فلا عجب إذا اتخذ الرسول صل الله عليه وسلبم ، احتياطات استثنائية وهو يبلغ المسلمين هذه الثوابت التي يقوم عليها نظام المعاملات في الإسلام . ولا عجب إذا رأيناه عليه الصلاة والسلام يترك للسامعين فرصة للتفكير ، وتجميع المعلومات والتهيئو لسماع الجواب وتعلم الأصول . فالمهلة التي كانت بين سؤال وآخر كان الغرض منها « الاستحضار فهو مهم وليقبلوا عليه بكليتهم وليستشعروا عظمة ما يخبرهم عنه »[2] .

فالوسيلة التي استخدمها الرسول صلى الله صلى الله عليه وسلم للوصول إلى هذا الهدف هو السؤال التنشيطي الذي إذا ما استخدمه المربي والداعية استخداما

---

(١) خ - ٣ العلم / ٩ .

(٢) ابن حجر فتح الباري ١ / ١٢٩ نقلا عن القرطبي .

حسناً ضمن استعداد قوى المتعلمين الذهنية والحسية للتلقي والفهم والإدراك .

الثاني « الاستنتاج » : مرت بنا أحاديث كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتدرجأ بالمتعلم في الأسئلة ليجعله يقر بحقيقة علمية أو تستنْتج حُكْماً أو مقْصداً يفهم مقصداً من مقاصد الشريعة[1] .

الثالث «التقويم والمراقبة» : جاءت بعض أسئلة الرسول صلى الله عليه وسلم لتحدد مقدار العلم الذي اكتسبه الصحابة رضي الله عنهم .

فقد خرج الأمام البخاري في أبواب متفرقة من كتاب العلم ، حديث عبد الله عمر الذي جاء فيه أن الرسول صلى لله عليه وسلم قال : إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وإنها مثل المسلم ، فحدثوني ماهي فوقع الناس في شجر البوادي . قال عبد الله ووقع في نفسي أنها النخلة ، فاستحييت ، ثم قالوا : حدثنا ماهي يارسول الله . قال : هي النخلة[2] .

والمتأمل في الحديث وفي العناوين التي وضعها البخاري لأبوابه يلاحظ :

(أ) أن الرسول صلى الله عليه وسلم سأل الصحابة عن شجرة لا يسقط ورقها ولا تخفي بركتها ومشهورة بالصبر وعلو المكانة في المجتمع العربي ، في ذلك الوقت .

وسؤاله ذلك يهدف إلى المراقبة والاختبار وتوجيه النظر وحث الناس على التأمل والتدبر والمقارنة واستخلاص العبر ، فالمجيب من الصحابة عن هذا السؤال يعد من الذين اكتسبوا جانباً من العلم والمعرفة ، لذلك تمنى عمر ابن الخطاب رضي الله عنه أن لوترك ابنه الحياء وأجاب بما وقع في نفسه .

(ب) أن الرسول صلى الله عليه وسلم وهو المعلم الرفيق بالمتعلمين الميسر

---

(١) انظر حديث الأعرابي الذي جاء مستنكراً أن تلد امرأته ولداً أسود ، ص ٣٥ من هذا البحث ، وقصة الفتى الذي أتى طالباً الأذن في الزنا ص ٤١ من هذا البحث .

(٢) خ - ٣ العلم / ٤ - ١٤٥ - ٥٠ .

عليهم الأمـور الآخذ بيدهم ، الغاضب على من يعسر عليهم أو يخاطبهم بما لايفهمـون أو يكلفهم مالا يطيقـون لم يتعجب من توقف الصحـابة رضي الله عنهم - فقد أدبه ربه فأحسن تأديبه وأبعده عن القسوة والغلظة . قال تعالى : « ولـو كنت فظاً غليظ القلب لا نفضوا من حولك[1] » . بل أجابهم وعلمهم وجعلهم يدركـون أن الإنسـان مهما بلغ علمه فإنه يبقى ناقصاً وفي حاجة إلى التعهد ، كما بين لهم أنه لا حياء في العلم .

بهذه الـطريقـة المتكـاملة التي ذكـرنـا بعض جوانبهـا وبفضل المؤسسات التعليمية التي اقيمت بالمدينة المنورة كالمسجد والصفة والكتاب ودار القراء هيأ الرسول صلى الله عليه وسلم لسياسته التعليمية القائمة على أصول محكمة أن تخرج العرب وغيرهم من الأمية وأن تمكن العلوم من التقدم والنماء والتطور .

أثر السياسـة النبويـة في تقدم العلوم :

(١) اتساع دائرة العلوم :

لقد بينا في المدخل أن العرب في جاهليتهم كانوا أميين وأن العلوم لاتكاد تذكر عندهم . أما جيرانهم من فرس وروم ، فإنهم وإن كانت لهم بعض العلوم إلا أنها كانت خاصة بطبقة من الطبقات .

وبفضل سياسة الرسول صلى الله عليه وسلم ، التعليمية ، اتسعت دائرة العلوم فأصبحت تضم العلم الأعلى أي المنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم وعلوم الوسائل أي التي يستطيع بفضلها الإنسان أن يكون خليفة في الأرض وأن يقوم بما كلف به على أحسن وجه وأن يبني الحضارة الإنسانية .

واستطاع العلماء بفضل سياسة الرسول صلى الله عليه وسلم التعليمية أن يدخلوا في العلم المشروع كل فرع من فروع المعرفة فتفسير القرآن وتأويله وجمع الأحاديث ونقدها متناً وسنداً واستخراج ما بها من أحكام ، والمباحث الكلامية والفلسفية وعلم الحساب والهيئة والجغرافيا والتاريخ كلها علوم نشأت وانتشرت

---

(١) آل عمران ١٥٩ .

واستطاع أصحابها أن يتناولوا موضوعاتها وأن يختلفوا فيما توصلوا إليه دون أن يتهموا بالكفر أو الالحاد أو الهرطقة . بل إن هناك من درس علوماً تبدو في ظاهرها منافية للدين .

وهكذا اتسع الإسلام لكل علم بشرط أن تتوفر فيه بعض الشروط منها أن يكون دليلاً للإيمان وللعمل .

(٢) انتشار الكتابة :

ان اعتناء الرسول صلى الله عليه وسلم بالكتابة ظهر واضحاً جلياً منذ نزول الوحي عليه وأخذ شكلاً عملياً في غزوة بدر الكبرى . وقد نتج عنه تزايد عدد الكتاب ، فقد بلغ عدد كتاب الوحي في أواخر الرسالة خمسين كاتباً[١] وذكر الدكتور الأعظمي اثنين وخمسين من الصحابة كانوا يكتبون الحديث[٢] .

فأبو بكر الصديق قد كتب الحديث وضمنه بعض الرسائل التي وجهها إلى من ولاهم أمراً من أمور المؤمنين . فقد ذكرت بعض الأخبار أنه وجه كتاباً إلى أنس بن مالك جاء فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم : هذه فريضة الصدقة التي فرض الرسول الله صلى الله عليه وسلم على المسلمين والتي أمر الله بها رسوله (الحديث)[٣] .

وأبو هريرة أصبحت له صحف يعود إليها بعد أن كان غير كاتب ومؤكداً أن من كان أكثر منه حديثاً إنما تبرز عليه بفضل الكتابة فقد روى عنه أنه قال : « مامن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد أكثر حديثاً عنه مني إلا ما كان من عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب وكنتنن لا أكتب[٤] . لقد عمل أبوهريرة على أن يصبح كاتباً قارئاً فكان له ذلك. فقد أخرج ابن وهب من طريق ،

---

(١) عبد الحي الكتاني ، التراتيب الادارية .

(٢) محمد مصطفى الأعظمي ، دراسات في الحديث النبوي ، ٩٢ وما بعدها .

(٣) خ - ٢٤ الزكاة / ٣٨ .
د - ٣ الزكاة / ٤ (١٥٦٧) .

(٤) الخطيب البغدادي تقييد العلم ٨٢ - ابن عبد البر ، جامع بيان العلم وفضله ١ / ٨٤ .

الحسن بن عمرو بن أميه قال : تحدثت عند أبي هريرة بحديث فأنكره . فقلت إني سمعته منك فقال : إن كنت سمعته مني فهو مكتوب عندي[1] .

لقد ضعف بعضهم سند الخبر الأخير ولكنا نميل إلى ترجيح صدوره عن أبي هريرة لأننا نعلم أن توجيهات الرسول صلى الله عليهن وسلم تطلب من المسلم أن يتعلم القراءة والكتابة وأن أبا هريرة كان من أهل الصفة وهؤلاء كان لهم معلمون يعلمونهم القرآن والكتابة فقد روى عن عبادة بن الصامت أنه قال : علمت ناساً من أهل الصفة الكتابة والقرآن فأهدى إلي رجل منهم قوساً (الحديث)[2] .

وعبد الله بن عمرو بن العاص كان من الذين رخص لهم الرسول صلى الله عليه وسلم بكتابة الحديث عنه ودونت عنه الصحيفة الصادقة . وجاء في الأخبار أنه أملى الأحاديث على طلابه . فقد ذكر الدكتور الأعظمي[3] ، أن أحاديثه كانت مكتوبة عند سبعة من التابعين هم : أبو سبرة[4] وشعيب ابن محمد بن عبد الله بن عمرو[5] ، وشفي بن ماتع[6] ، وعبد الرحمن[7] ، وعبد الرحمن بن سلمة الجمحي[8] وعبد الله بن رباح الأنصاري[9] ، وعامل لعبد الله بن عمرو[10] .

وإذا أضفنا إلى الصحابة الذين كتبوا القرآن وبعض الأحاديث أولئك الذين كتبوات العقود والرسائل تبين لنا أن آخر العهد النبوي شهد تطوراً مهما في عدد

---

(١) ابن حجر ، فتح الباري ١ / ١٧٤ قال سند هذا ضعيف . وعلى تقدير ثبوته فهو نادر .

(٢) حم ٥ / ٣١٥ .

(٣) الأعظمي ، دراسات في الحديث النبوي ، ١٢٤ - ١٢٥ .

(٤) روى عن عمر بن الخطاب ته ١٢ / ١٠٥ .

(٥) روى عن جده عبد الله بن عمرو بن العاص وابن عباسي وابن عمرو معاويه وعبادة بن الصامت ، ته ٤ / ٣٥٦ .

(٦) روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص وأبي هريرة ته . ته ٤ / ٣٦٠ .

(٧) الأعظمي دراسات في الحديث النبوي ١٢٥ نقلا عن فتح المغيث ٢١٦ وقال : لا ندري هل هو عبد الرحمن بن سلمة أم رجل آخر .

(٨) ، (٩) ، (١٠) انظر م . س ص ١٢٥ .

الذين كانوا يعرفون القراءة والكتابة وأن هؤلاء نشروا الكتابة في جيل التابعين ، فانتشرت في الأمصار واستعين بها في المحافظة على النصوص وحمايتها من التحريف والتغيير وبدأت شيئاً فشيئاً تأخذ مكانتها في المجتمع وتقنع المحترزين منها بضرورة استخدامها والاطمئنان إليها والعمل على تطويرها .

وما أن أشرف القرن الأول على النهاية حتى أخذت معالم المكتبة الإسلامية تظهر وذلك بنسخ القرآن الكريم ، وصحف الحديث وبعض المدونات في السيرة النبوية وغيرها من الفنون .

(٣) انتشار المؤسسات التعليمية :

لقد وجدت في عصرة النبوة مؤسسات تعليمية منها ، المسجد والصفة ودار القراء ، والكتاتيب . ولما فتح المسلمون البلدان نقلوا إليها هذه المؤسسات وتكونت الجامعات ، وكثر عدد الطلبة وظهرت الرحلة في طلب العلم وأصبح للعالم الإسلامي مجموعة من المؤسسات التعليمية ومن الطرق المنهجية التي لم تتوفر لبعض الشعوب إلا منتذ قرون لا تزيد عن الأربعة .

(٤) أثر سياسة الرسول صلى الله عليه وسلم التعليمية في منهج العلوم :

مر بنا أن منهج الرسول صلى الله عليه وسلم التعليمي اعتمد الاستقراء العقلي والتجربة والأمانة العلمية . وقد أثرت هذه الأسس في العلوم فأخرجتها من دائرة الشعوذة والأسطورة ومكنتها من أن ترتبط بالنظر والتأمل والتدبر والبحث في قضايا الإنسان وخصائص الكون وذلك باستخدام المناهج التحليلية والتجريبية والبحث عن العلل والمقاصد . فعلماء الحديث وقد وجدوا أنفسهم أمام بعض المشاكل التي تبدو مستعصية الحل قد طبقوا جانباً من منهج سياسة الرسول صلى الله عليه وسلم التعليمية فنقدوا مدلول ما يضاف إليه عليه الصلاة والسلام بتسليط معايير الوحي والعقل والتجربة عليه . فقالوا إن من علامات وضع الحديث الركاكة في لفظه أو الفساد في معناه ، ومناقضته لنص الكتاب أو

السنة المتواترة مناقضة بينه أو مخالفته للحقائق التاريخية وغيرها من علامات نقد المتن .

ولم يكتفوا بهذا الجزء من النقد لأنه قد يترك ثغرة يستغلها الوضاعون فأضافوا إلى ذلك نقد الشكل فوضعوا قواعد علمية يتعرفون بفضلها على حامل الحديث .

وبذلك وضعوا معايير لنقد مضمون العلم وشكله واسهموا في جعل العلماء يتبعون في علمهم أمرين مهمين هما الدقة في المعلومات والأمانة في بيان النتائج وفي نقل المعرفة . ونحن نعلم اليوم أن تقدم أي علم مرتبط بالأمرين معاً . والمتأمل في تاريخ العلوم الإسلامية بالدرجة الأولى يلاحظ إلى أي حد تأثرت بالمنهج النقدي الذي سلكه المحدثون وهم يخلصون الأحاديث النبوية من السلبيات ويصنفونها ويبوبونها ويستنبطون ما بها من أحكام وتوجيهات .

والخلاصة فإن سياسة الرسول صلى الله عليه وسلم لها مضمون امتاز بالشمول والاحاطة بكل ما يمكن الإنسان من أن يكون حقاً خليفة في الأرض ، وأن يعمل لدنياه على أنها مطية للآخرة .

أما خصائصها فتبين للإنسان أن العلم حق مشاع وأن الطبقية فيه ضلال والقول بأن الأجناس تختلف في القدرة عليه بدعة سيئة لا تقوم على دليل . كما تبين أن باب العلم يبقى مفتوحاً وأنه لا وجود لعلوم احترقت وانتهى أمرها أو لعلوم تنقل من مكان إلى آخر ، أو يهبها هذا لذاك ، أو يتكرم بها عالم على جاهل لأسبابا سياسية أو غيرها . فلابد من البذل والكسب . ومن هنا يأتي دور الطرق والأساليب التعليمية التي بفضلها يتيسر للمتعلمين تحصيل العلم واستثماره والمشاركة في تطوره كما يأتي دور المؤسسات التعليمية الواجب قيامها والسهر عليها وتعهدها في المجتمع الإسلامي . .

والله أعلم